عبد العزيز بركة ساكن للـ«التغيير»:
هذه دولة عدوها الأول الثقافة والمثقف! (1)

– المعرفة والوعي يجعلان الجنود ينامون ويجبران المرتزقة على الرحيل

حاورته في القاهرة: رشا عوض (2)

«الجنقو مساير الأرض» و«مسيح دارفور» و«مخيلة الخندريس» و«زوج امرأة الرصاص» مجرد أمثلة لروايات الأديب الفذ عبد العزيز بركة ساكن، المحجوبة عن «المكتبات الرسمية في السودان» ولا يتحصل عليها القارئ السوداني إلا ممن يسميهم ساكن «الناشر الشبح» الذي يسرب «الكتاب المحظور» ويعيد طباعته ويوزعه بعيداً عن المكتبات! في مشهد يعكس أزمة الثقافة في البلاد! والذي جعل عبد العزيز بركة ساكن هدفاً لمقص الرقيب باستمرار –من وجهة نظره– هو أن هناك من يعتقدون أن كتاباته «تسيء لمشروعاتهم الآيديولوجية، وتخترق خطاباتهم المستقرة» ولكنه يستدرك قائلاً: «بالطبع لا أقصد ذلك، كل ما أفعله أنني أنحاز لمشروعي الإنساني، أي أكتب عن طبقتي، أحلامها، آلامها طموحاتها المذبوحة، وأيضاً سكينتها التي تذبح بها الآخر! وحتى لا يلتبس الأمر مرة أخرى، أقصد بطبقتي المنسيين في المكان

(1) نشر الحوار بصحيفة التغيير الإلكترونية بتاريخ 2 ابريل 2014.
(2) صحفية سودانية.

والزمان: الفقراء، المرضى، الشحاذين، صانعات الخمور البلدية، الداعرات، المثليين، المجانين، العسكر المساقين إلى مذابح المعارك للدفاع عن سلطة لا يعرفون عنها خيراً، المتشردين، أبناء وبنات الحرام، الجنقو العمال الموسميين، الكتاب الفقراء، الطلاب المشاكسين، الأنبياء الكذبة، وقس على ذلك من الخيرين والخيرات من أبناء وطني، إذن أنا كاتب حسن النية وأخلاقي، بل داعية للسلم والحرية، ولكن الرقيب لا يقرأني إلا بعكس ذلك».

التقينا الأستاذ عبد العزيز بركة ساكن، وكان لنا معه هذا الحوار!

- في الأدب، كغيره من المجالات، هناك صراع بين التقليدية والحداثة، القديم والجديد، هل عبد العزيز بركة ساكن جزء من هذا الصراع، لا سيما أنك مارست نوعاً من التمرد على الأنساق التقليدية في الحكي أو السرد في «الطواحين» والجنقو مسامير الأرض» و«مسيح دارفور»؟...

هنالك صراع إيجابي دائماً ما بين الجديد والقديم في الأدب، فالأدب -مثله مثل الفنون الأخرى- يقوم على جذر قديم ولكنه يثمر ما يشبه وقته ويتطلع أن يُكوِّن جذوراً للمستقبل وهكذا، ينفي نفسه بتأكيدها، ولكن يظل الصراع صراع أجيال أكثر مما هو صراع في الفن ومادته، صراع اجتماعي بحت لا علاقة له بالكتابة إلا من حيث كونها حرفة، فلا توجد نصوص غير نصوص تسبقها، ولو كانت شفاهة، أما المؤلف فهو صياغة اجتماعية في إطار زماني ومكاني، بينما يبقى أثره خارج ذلك كله، أي ينشد الخلود. في رواياتي، بالذات الجنقو، تمردي كان بالعودة للقديم، للجذور السردية في السودان، واعتمدت

فيها بقدر الإمكان على نظام سرد المشافهة في الإندايات، وهي المشارب الوطنية للأُنس والمنادمة، حيث المحاورة ليست دائماً بين شخصين وهي قصيرة جداً حيث لا يتحمل السمار مركزية ما، ويعد كل واحد منهم أنه مركز الأشياء، لذلك هنالك وصف للسكران يقول للجمل بِسْ (أي يرى الجمل قطاً!). والمونولوج هو في الغالب أشبه بحوار علني وهو موجه للآخر أكثر مما هو موجه من النفس للنفس «راجع حوار عبدا رامان مع نفسه في رواية الجنقو». أيضاً حاولت أن أتعامل مع اللغة بصورة أعمق، أي باعتبارها جزءً محوريًّاً من تكوين الشخصية وأنها دالة للمكان والزمان، وكما قال ماركس «كَمَّالة قيم»، أقصد أنه ليس هنالك شيء بالمجان في الكتابة، فكل الذي يكتب على البياض لديه ما يقوله.

– هل انعكست هامشية السودان المركبة (هامش إفريقيا وهامش العالم العربي، وهامش العالم الإسلامي) على مكانة الرواية السودانية عربياً وإفريقياً؟ وهل انعكست على مضامين الأدب السوداني؟

نعم، هامشية السودان هامشية متعارضة مع وضعه الجغرافي الذي هو في قلب إفريقيا، ليصبح في هامشها اقتصادياً وسياسياً وفكرياً أيضاً، بينما كان في الماضي مركزاً عالمياً حيث قامت به أقدم حضارة في تاريخ البشرية وهي الحضارة النوبية، التي أنشأت أحد عجائب العالم القديم ألا وهي الأهرامات، ومعروف أن الأهرامات السودانية سابقة على الأهرامات المصرية وهي نتاج عملية حضارية طويلة. ولكن وضعنا الهامشي نتج عن تنكرنا وانفصالنا عن تلك الحضارة وملاحقة ظلال حضارات شعوب أخرى يستحيل علينا أن

نصبح مركزها، وهي لا ترقى لما لدينا. الأدب في السودان في أغلبه يمثل ذراعاً قوية وأمينة لفكرة أننا لسنا نحن، بل أننا تلك الحضارات القادمات من وراء البحر! ولم تكن هنالك مدارس أدبية فاعلة لتخرجنا من تلك الوهدة! الغابة والصحراء هجين، أباداماك وأولوس اسمها كان منا وقلبها مغترب! وهكذا، فالاغتراب اللغوي والعقدي أنتج اغترابا فكرياً وما تلك الهُوية المشوهة إلا علامة ذلك.

- عندما يتناول النقاد رواياتك أو حتى عندما يعلق عليها عامة القراء هل تحس أن النقاد والقراء يجعلون رواياتك تنطق بأفكارٍ ومعانٍ لم تقصدها وربما لم تخطر ببالك؟

الكتاب لا يكتبه الكاتبُ وحده، بل يكتبه القراء جميعاً بعد مبادرة المؤلف الذي يمكن أن نسميه افتراضياً الأول، لأنه في الواقع ليس الأول بالمعنى الحرفي للكلمة، فالكتاب كان موجوداً هناك منذ أن كان العقل الذي يفكر ويتخيل ويبدع. عندما يصل القراء أو النقاد لأفكار متباينة في ذات النص، فإنهم يتحدثون عن كتبهم هم أنفسهم التي رأوها في النص المقروء وهو شيء طبيعي.

- هل أبطال رواياتك من صنع خيالك أم أن بعضهم أشخاص حقيقيون التقيتهم في مرحلة ما من مراحل حياتك؟

أسماء أبطال رواياتي في الغالب أسماء موجودة في المجتمع، وأغلبهم أصحابي! ولكن الحكايات والبنيات السردية التي هم فيها داخل النصوص، متخيلة. فالواقع لا يمكن أن يكون سرداً فنياً، أن ترسم شجرة كما هي ليس

فناً، فالشجرة في الطبيعة في كمال جمالها.

- هل تكتب الشعر إلى جانب الرواية والقصة القصيرة؟

الشعر قد يكون جزءً من كل شيء في الحياة، بالتالي فإنه في السرديات: شعرية الثيمات، شعرية الحوار وشعرية اللغة، وشعرية التقطيع والوقفات، وشعرية الموضوع بل وشعرية القبح الذي يجمل الرواية ويعطيها طعم الزقوم. فالكاتب يكتب الشعر بأوجه مختلفة وتحت أضرب لا نهاية لها، فلا مهرب من الشعر إلا إليه.

- السودان بلد مقسم إلى ثنائيات متضادة درجة الاحتراب على أساس صراع الهوية.. إلى أي مدى انفعل الأدب السوداني بقضية الهوية؟

ينفعل الأدب بصورة أو بأخرى بقضية الهويات في السودان، لأن قضية الهُويات ومشكلها هما سر ومفتاح كل الذي يحدث الآن من حروب، ولكن ليس ذلك الانفعال إيجابيٌّ في جميع حالاته بل قد يكون سلبياً؛ إذ أنه قد يُعمِّق الاغتراب.

- هل صحيح أن روايات عبد العزيز بركة ساكن متورّطة في تأجيج صراع الهوية وتعميق الانقسامات؟

رواياتي متورطة تماماً في البحث عن هويات هذه الشعوب، من أجل أن نعرف بعضنا البعض ومن ثم نحترم بعضنا البعض، لنعيش في سلام وتسامح بغير تعال وإقصاءات، هي في الأصل نتاج جهلنا لبعضنا البعض، المعرفة والوعي يوفران كثيراً من الأرواح ويجعلان الجنود ينامون قليلاً، ويجبران

المرتزقة على الرحيل.

- معنى ذلك أن عبد العزيز بركة ساكن متعاطف مع أحد طرفي الحرب في السودان؟

نعم أنا غير محايد لأن المحايد هو الذي يقف في صف القتلة، وأقف مع أحد طرفي الحرب وهم الضحايا، الذين تعمل فيهم الآلة العسكرية المركزية والمرتزقة الجنجويد والإخوان المسلمون ذبحاً واغتصاباً وقتلاً وتشريداً وحرقاً.

- ما هو جديد عبد العزيز بركة ساكن؟ ما هي آخر إصداراتك، ما الذي تُرجم من أعمالك، ماذا تكتب الآن؟

أكتب رواية طويلة، ولكنني متوقف الآن لظروف أسرية معقدة، وعندما تستقر الأمور، ستستقر الكتابة.

- بماذا تفسر منع الرقابة لرواياتك؟

المنع كان سياسياً بحتاً! فلا يمكن أن تقتل سلطة مواطنيك وترضعك لبن الحياة، فهو جزء من حرب الإبادة الجماعية في دارفور وجبال النوبة والنيل الأزرق، جزء من حرب الخزانات في الشمالية وإغراق الحضارات السودانية، قتل المتظاهرين وإعدام الأستاذ محمود محمد طه.

- كيف تقيّم أوضاع الحركة الثقافية في السودان الآن؟

الحراك الثقافي في السودان متعثر جداً، فهو يرزح تحت قوانين جائرة في دولة عدوها الأول الثقافة والمثقف.